المبحث الثالث

زمانه ومكانه، وعقيدة قومه قبل بعثته

المطلب الأول

مسكنه

لقد اختلف في مكان المجتمع الذي بعث إليه سيدنا نوح عليه السلام، فمنهم من قال أن مسكنه بأرض العراق،([[1]](#footnote-1)) وقيل أن دمشق كانت دار نوح عليه السلام،([[2]](#footnote-2)) وقيل أنه كان في أرض الجزيرة العربية وذلك قبل الغرق،([[3]](#footnote-3)) وقيل كان موطنهم في اليمن.([[4]](#footnote-4))

ورجح بعض الباحثين أن مسكنه كان في شبه جزيرة العرب، واستدل بعدة أدلة، مثل قوله تعالى: ﭽ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭼ ([[5]](#footnote-5)) ، واستدل بأن الجزيرة هي موطن الأنبياء جميعا، وهم ينحدرون من نسل سام بن نوح عليه السلام، واستدل أيضا بأن البيت وضع لآدم ليطوف به، وأن نوحا حجه قبل الغرق.([[6]](#footnote-6))

وقد لمح القرآن الكريم – ولو من بعيد - بأن قوم نوح كانوا ذوي صناعة، حيث قال: ﭽ ﯩ ﯪ ﭼ ([[7]](#footnote-7)) فأشار القرآن الكريم إشارة إلى أن الصناعة في بدايتها، حيث أنهم لبسوا الثياب، ولم يقل عنهم كما قال عن آدم: ﭽ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼﭽ ﭼ ([[8]](#footnote-8)) قال بعض المفسرين أن المراد بالريش الأثاث،([[9]](#footnote-9)) والعيش النعيم،([[10]](#footnote-10)) واللباس الفاخر،([[11]](#footnote-11)) والمال،([[12]](#footnote-12)) فهذا يدل على وجود الثياب قبل زمن نوح عليه السلام. والله تعالى أعلم بالصواب.

ونستدل على وجود أموال وزراعة وبداية حضارة بقوله تعالى: ﭽ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭼ ([[13]](#footnote-13)) وقال تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕﭖ ﭼ.([[14]](#footnote-14))

فمن هذه الآيات ومما ذكره المفسرون يتضح لنا بأن الأموال كانت معروفة في ذلك الزمن، أو قبل ذلك، سواء كانت نقودا أم سبائك أم أشياء أخرى تعارفوا عليها من صنف الأموال التي يتعاملون بها، وكذلك يظهر من الآية الأولى أن الجنات من الزروع سواء كانت أشجارا أم بساتين أم غيرها كانت معروفة، والزراعة كانت مصدرا أساسيا للمعيشة كما تشير إليه هذه الآيات.

إذن فالعصر الذي بعث فيه نوح عليه السلام كان عصرا في بداية التطور، لأن المجتمع آنذاك كان متكاملا من جميع النواحي، ما عدا اختلاف عقائدهم، فكان فيهم والملوك من الناحية الإدارية، أما من الناحية الاقتصادية فكانوا أصحاب صناعة وتجارة وزراعة وحضارة، ولكنهم كانوا متأخرين في فهم الدين القائم على التوحيد.

المطلب الثاني

ما بينه وبين آدم عليه السلام

بعدما كثر أولاد آدم عليه السلام، وأصبحوا شعوبا وقبائل، انحدر المجتمع تدريجيا مع مرور الزمن إلى الانحلال والابتعاد عن أوامر الله تعالى، فأرسل الله إليهم نبيه نوحا عليه السلام، وفي هذا الزمن طغى الناس وابتعدوا عن عبادة الله، حتى لم يبق إلا العدد القليل، كما قال تعالى: ﭽ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﭼ ([[15]](#footnote-15)) ومع كثرة أعدادهم اشتد طغيانهم حتى كانوا يقولون لأطفالهم: إن هذا مجنون فلا تطيعوه.

فكان امتداد هذا الزمن الطويل بين آدم ونوح عليهما السلام يقدر بعدة قرون حسبما تدل على ذلك الروايات، فقد روي عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على ملة الحق، وأن الكفر بالله إنما حدث في القرن الذي بعث فيه نوح عليه السلام.([[16]](#footnote-16))

وروى الحافظ أبو حاتم ابن حبان في صحيحه: أن رجلا قال: يا رسول الله: أنبي كان آدم؟ قال: ((نعم مكلم)) قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: ((عشرة قرون)).([[17]](#footnote-17))

أما في الكتاب المقدس، فقد سبق لنا الكلام عن الزمان الذي ولد فيه سيدنا نوح عليه السلام بشيء من التفصيل، مع ذكر سني الولادة والوفاة لآبائه واحدا واحدا.

وورد في تفسير أنطونيس فكري جدول تفصيلي يوضح ولادات ووفيات آباء سيدنا نوح عليه السلام:

|  |  |  |  |  |
| --- | --- | --- | --- | --- |
| الاسم | عمره عند ولادة الإبن | عمره عند موته | سنة ميلاده بالنسبة لتاريخ العالم | سنة موته بالنسبة لتاريخ العالم |
| آدم | 130 | 930 | 1 | 930 |
| شيث | 105 | 912 | 130 | 1042 |
| أنوش | 90 | 905 | 235 | 1140 |
| قينان | 70 | 910 | 325 | 1235 |
| مهللئيل | 65 | 895 | 395 | 1290 |
| يارد | 162 | 962 | 460 | 1422 |
| أخنوخ | 65 | 365 | 622 | 987 |
| متوشالح | 187 | 969 | 687 | 1656 |
| لامك | 182 | 777 | 784 | 1651 |
| نوح | 500 | 950 | 1056 | 2006 |

السنوات فى هذا الجدول محسوبة على أساس الأسماء التي وردت بالكتاب المقدس. وهناك احتمال أن تكون هناك أسماء أخرى لم يوردها الكتاب.([[18]](#footnote-18))

المطلب الثالث

عقيدة قومه قبل البعثة

لقد أطلعنا القرآن الكريم على حالة الجيل بعد آدم عليه السلام، حيث عرض علينا قصة ابني آدم، وبين لنا العلاقة بين بني الإنسان في ذلك المجتمع.

فقد بين لنا القرآن الكريم طابع النفوس الموروثة وما يفعله الحسد الكامن والمرض الباطن الذي يهدم أقوى وأمتن رابطة وهي الأخوّة، فبين لنا أن أحدهما كان يمثل الخير، والآخر يمثل الشر والسير في طريق الغواية والاستجابة للشيطان، فكانت أول جريمة على الأرض.([[19]](#footnote-19))

ثم سار المجتمع بمرور الزمن بالابتعاد عن شريعة الحق، واتخاذ الملاهي، وارتكاب المعاصي، وكان ذلك في ولد قابيل، فأصبح مجتمعهم مجتمعا يكثر فيه الفحش وشرب الخمور وغير ذلك من أنواع الفساد.([[20]](#footnote-20))

وبعد أن كثر أولاد آدم وافترق أولاد قابيل([[21]](#footnote-21)) عن أولاد شيت وأتباعهم، وسار أولاد قابيل في طريق المعاصي والمنكرات، بقي أولاد شيت على شريعة الحق.([[22]](#footnote-22))

وقد زاد الناس في ارتكاب المنكرات والمحرمات، وانجرف عدد كبير من أتباع شيت مع أولاد قابيل حتى لم يبق من أتباع شيت إلا العدد القليل،([[23]](#footnote-23)) وإذ ذاك ظهرت الأصنام وعكف الناس على عبادته، فرفع إدريس عليه السلام،([[24]](#footnote-24)) وانقطع بذلك الوحي.

وانجرف من انجرف، وقل عدد المؤمنين بشريعة الحق، فخالطوهم وزاد المنكر وكثر بنو قابيل حتى ملئوا الأرض فسادا، فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وترك ما هم عليه.([[25]](#footnote-25))

**نشأة الأصنام وأسماؤها**

لم يشر القرآن الكريم إلى زمن نشوء عبادة الأصنام والأوثان، ولكن أشار إلى عبادة قوم نوح عليه السلام قبل مبعثه، فقال تعالى: ﭽ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﭼ.([[26]](#footnote-26))

وقد نشأت الأصنام قبل مبعث نوح عليه السلام بزمن بعيد، وعلى ما يذكر أن الأصنام عبدت في عصر إدريس عليه السلام،([[27]](#footnote-27)) وازدادت عبادتها.

وذكر أيضا أن هذه الأصنام أسماء لجماعة عبادة، كانوا بنين لآدم، فعندما ماتوا حزن عليهم أهل ذلك العصر، فوسوس لهم الشيطان لصناعة تماثيل من صفر ونحاس، فجعلوها في نهاية المسجد، فلما ذهب الجيل وجاء الجيل الآخر فقال اللعين لأولادهم: هذه آلهة آبائكم، فعبدوها، ثم جاء الطوفان فدفنها فأخرجها اللعين للعرب، فكان (ود) لقبيلة كلب بدومة الجندل، و(سواع) لقبيلة هذيل بساحل البحر، و(يغوث) لغطيف من مراد، و(يعوق) لهمدان، و(نسر) لذي الكلاع من حمير.([[28]](#footnote-28))

أخرج البخاري في صحيحه: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ. ([[29]](#footnote-29))

وتطورت عبادتهم للأصنام حتى صار لكل صنم من أصنامهم الكبار عيد في كل وقت من أوقات السنة، فيتبركون به ويذبحون له ويتوسلون به، ويحتفلون بذلك اليوم أعظم احتفال، ويسجدون له،([[30]](#footnote-30)) ثم زاد عدد الأصنام حتى أصبح لهم ألف وسبعمائة صنم،([[31]](#footnote-31)) وإن هذه الأصنام انتقلت إلى العرب وعبدوها وزادوا في عبادتها.([[32]](#footnote-32))

ومهما يكن فإن الأصنام قد نصبت، سواء نصبها أولاد قابيل، أم الشيطان، أم غيرهم، فعبدوها وأمعنوا في عبادتها، وبهذا أشركوا بالله تركوا ملة الحق.

أما في الكتاب المقدس فقد ورد الكلام عن عقيدة قومه بشيء من الاختصار، تقول التوراة:

5وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ. 6فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ...

11وَفَسَدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ اللهِ، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْمًا. 12وَرَأَى اللهُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ، إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الأَرْضِ.([[33]](#footnote-33))

أسماء الأصنام

لقد خص القرآن الكريم قسما من أصنام قوم نوح بالذكر دون غيرها، لأنها أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم،([[34]](#footnote-34)) وكل صنم من هذه عبده طائفة من الناس.([[35]](#footnote-35))

وكما أسلفنا في نشأة الأصنام فهي أسماء رجال صالحين من أولاد آدم عليه السلام، وبعد أن ماتوا صوّر الشيطان - أو غيره - لقومهم تماثيل على صورهم فقاموا يتقربون إليها شيئا فشيئا، حتى أتى الجيل الذي بعدهم وزين لهم الشيطان ذلك، وقال لهم هي آلهة آبائكم،([[36]](#footnote-36)) وعندما جاءهم نوح عليه السلام لكي يبعدهم عنها ولكن لم يتبعه إلا القليل،([[37]](#footnote-37)) وهذا واضح مما جاء في القرآن الكريم، قال تعالى: ﭽ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﭼ.([[38]](#footnote-38))

وجاء في كتاب الحيوان: أنه يوجد وثن من الأوثان القديمة كان يسمى نسرا، وأنه على صورة نسر.([[39]](#footnote-39))

وقد يعترض على هذا القول بأنه قد سبق أن الرأي الراجح في أصل هذه الأصنام هو أنهم كانوا عبادا صالحين... فإذا كانوا كذلك وجب أن تكون صور الأصنام على صور الرجال الصالحين.

ووردت روايات أخرى مختلفة في أشكال وصور الأصنام لا داعي لذكرها هنا؛ فهذا الاختلاف لا يؤثر في كون هذه الأصنام قد عبدت سواء أكانت على شكل واحد أم على أشكال متعددة.([[40]](#footnote-40))

ولم تتطرق مصادر أهل الكتاب إلى الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح عليه السلام، ولا الدين الذي يدينون به.

1. () الأخبار الطوال للدينوري: 1. [↑](#footnote-ref-1)
2. () الأنس الجليل للحنبلي: 19. [↑](#footnote-ref-2)
3. () المزهر في علوم اللغة للسيوطي: 1/ 30. [↑](#footnote-ref-3)
4. () قصة الطوفان لعبد المجيد شوقي البكري: 44. [↑](#footnote-ref-4)
5. () سورة المؤمنون، آية: 29. [↑](#footnote-ref-5)
6. () المزهر للسيوطي: 1/ 30 ، وقصة الطوفان للبكري: 74 ، والأنس الجليل للحنبلي: 22. [↑](#footnote-ref-6)
7. () سورة نوح، آية: 7. [↑](#footnote-ref-7)
8. () سورة الأعراف، آية: 26. [↑](#footnote-ref-8)
9. () جامع البيان في تأويل آي القرآن: 12/ 362. [↑](#footnote-ref-9)
10. () الجامع لأحكام القرآن: 7/ 184. [↑](#footnote-ref-10)
11. () البحر المديد: 2/ 241. [↑](#footnote-ref-11)
12. () الدر المنثور: 4/ 209. [↑](#footnote-ref-12)
13. () سورة نوح، الآيات: 10 – 12. [↑](#footnote-ref-13)
14. () سورة هود، آية: 29. [↑](#footnote-ref-14)
15. () سورة هود، آية: 40. [↑](#footnote-ref-15)
16. () ينظر: تاريخ الطبري: 1/ 178 ، الكامل لابن الأثير: 1/ 26 ، تاريخ الخميس للديار بكري: 68. [↑](#footnote-ref-16)
17. () الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان لابن بلبان: 8/ 24 ، 25 ، وقال: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه. [↑](#footnote-ref-17)
18. () تفسير أنطونيس فكري: الإصحاح الخامس. [↑](#footnote-ref-18)
19. () ينظر: قصص الأنبياء لابن كثير: 48 ، 49 ، التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي: 6/ 49. [↑](#footnote-ref-19)
20. () ينظر: الكامل لابن الأثير: 1/ 33. [↑](#footnote-ref-20)
21. () تجد الإشارة هنا إلى أن بعض العلماء قالوا بأن قابيل لم يكن له عقب. [↑](#footnote-ref-21)
22. () ينظر: التاريخ المجموع لابن بطريق: 7 ، 8. [↑](#footnote-ref-22)
23. () ينظر: قصص الأنبياء للثعلبي: 32. [↑](#footnote-ref-23)
24. () قال تعالى: ﴿{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا\* وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 56،57] وقد روي أن إدريس عليه السلام رفع إلى السماء الرابعة، وهو ابن مائة وخمسين عاما. ينظر: أخبار الزمان للمسعودي: 56. [↑](#footnote-ref-24)
25. () قصص الأنبياء للثعلبي: 33 ، تاريخ الأنبياء والإسلام للمفتي: 9. [↑](#footnote-ref-25)
26. () سورة نوح، آية: 23 ، 24. [↑](#footnote-ref-26)
27. () المحبر للبغدادي: 3. [↑](#footnote-ref-27)
28. () الأصنام للكلبي: 51 ، وسبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف الشامي: 1/ 92. [↑](#footnote-ref-28)
29. () صحيح البخاري: 15/ 225 ، برقم (4539) باب (ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا). [↑](#footnote-ref-29)
30. () أخبار الزمان للمسعودي: 85. [↑](#footnote-ref-30)
31. () سمط النجوم للعصامي: 99. [↑](#footnote-ref-31)
32. () تفسير الثعالبي: 4/ 345 ، والبداية والنهاية لابن كثير: 1/ 105. [↑](#footnote-ref-32)
33. () العهد الجديد، الإصحاح السادس. [↑](#footnote-ref-33)
34. () تفسير أبي السعود: 5/ 198. [↑](#footnote-ref-34)
35. () البداية والنهاية لابن كثير: 1/ 106. [↑](#footnote-ref-35)
36. () الأصنام للكلبي: 51. [↑](#footnote-ref-36)
37. () كما ورد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40]. [↑](#footnote-ref-37)
38. () سورة نوح، آية: 5 ، 6 [↑](#footnote-ref-38)
39. () الحيوان للجاحظ: 7/ 35. [↑](#footnote-ref-39)
40. () قصص الأنبياء لابن كثير: 69 ، والأصنام للكلبي: 51 ، وسبل الهدى للشامي: 1/ 92. [↑](#footnote-ref-40)